

المأساة الفلسطينية

لباحث دبلوماسي كبير

أجل لم تعد قضية فلسطين مسألة من مسائل الاستعمار والسياسة ، ولكنها تفدو مأساة حقيقية

مضت إلى اليوم عدة أسابيع ، وفلسطين تجوز أحداثاً هائلة : أهوال الاضراب والمقاومة السلبية ، وأهوال القوة الناشئة تميل عليها وتنكل بها من كل صوب ، وتحاول اخماد أصواتها وأنفاسها بكل وسيلة ، وتعمل على تجريدتها من كل وسائل الاعراب والمقاومة ؛ والسياسة التخفية تشهد آلام شعب بأسره هادئة جامدة ، لا تحركها صرخات الألم ، ولا ازهاق الأنفاس واهراق الدماء ، بل تؤكد هادئة أنها لن تحاول بديلاً لخطتها ، وأنها ستبقى فيها إلى النهاية غير مكترثة بإرادة شعب وحقوقه ، بل بحياته أو موته

والواقع أن فلسطين اليوم تجوز صراع الحياة والموت ؛ وهي تجوز هذا الصراع منذ تسعة عشر عاماً ، أعنى منذ قضت عليها السياسة الانكليزية في سنة ١٩١٧ ، بأن تغدو وطناً قومياً لليهودية ؛ ولكن خطر الصهيونية على كيان فلسطين لم يبدُ في أعوامه الأولى كما يبدو اليوم ؛ وكانت الأمة الفلسطينية ما زالت في هذه الأعوام الأولى تهجس بشيء من الأمل ، أما اليوم فإن الخطر الصهيوني يبدو في ذروة روعته ، خطر فناء لا شك فيه ؛ وتفقد الأمة الفلسطينية كل أمل في عدالة الاستعمار والمعدالة الدولية ، وتدفنها اليوم إلى الكفاح نزعاً بأس عميق ؛ وإذا بلغت الأمم حد اليأس ، هانت عليها كل سبل الافدام والتضحية

وهذا ما يطبع كفاح الأمة الفلسطينية اليوم ، فإنها تجوز غمار هذه الأحداث الهائلة التي نشهدها منذ أسابيع ، مقدمة غير مكترثة لبذل النفس والمال ، وبتأثر على الكفاح بهمة الجلد السميت

أسفرت الحرب الكبرى عن وقوع فلسطين تحت نير استثمار مزدهوج ، فقد فرض عليها الانتداب البريطاني باسم عصبة الأمم ، والانتداب هو حماية أجنبية صريحة ؛ وقضت عليها السياسة البريطانية من جهة أخرى أن تكون وطناً قومياً لليهود ، وأدمج هذا المهد الذي قطمته أنجلترا لليهودية في نص الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم ، وغدت فلسطين بذلك أرضاً بريطانية كما غدت ميداناً للاستعمار اليهودي الاقتصادي والاجتماعي ومنذ سنة ١٩١٧ يتدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين ، بدعمها تدفق الأموال اليهودية ، والنشاط اليهودي بسائر أروانه ومناحيه ؛ ولا تدخر السياسة البريطانية من جانبها وسماً لرعاية هذا الوطن اليهودي الجديد ، وتشجيع نمائه ورخائه ، وتذليل كل صعب في سبيل الهجرة اليهودية ، وتنظيم الاستعمار اليهودي للبلاد ؛ وتفصح السلطة المنتدبة في ذلك مجالاً كبيراً لآراء الوكالة التنفيذية اليهودية ، وهي الهيئة اليهودية الرسمية التي تقوم في فلسطين بجانب سلطات الانتداب طبقاً لصك الانتداب ذاته ، وتمتع بحق الاقتراح والمشورة في كل ما يتعلق بالوطن القوي اليهودي

ومع أن اليهودية أقبلت من سائر أنحاء العالم على استثمار فلسطين بحماسة شديدة ، وحملت إليها مئات الملايين ، واشترت من أراضيها مساحات عظيمة ، حولتها إلى مستعمرات يهودية غنية ضخمة ، وانشأت مدينة يهودية عظيمة هي مدينة تل أبيب ، وعملت على إحياء اللغة العبرية وجعلها لغة الوطن القوي الجديد ، وانشأت جامعة عبرية كبيرة لتعمل على احياء التفكير اليهودي ؛ مع ذلك كله كانت اليهودية في أعوامها الأولى تسير الى غايتها متعثرة ، ويزعجها سخط العرب وتبرمهم ؛ وكانت تخشى دائماً أن تميل السياسة البريطانية الى ارضاء الأمانى القومية العربية بوجه من الوجوه ، خصوصاً وأن تصریح بلفور ذاته ينص على احترام حقوق الطوائف غير اليهودية ، المدنية والدينية ؛ بل لقد سر باليهودية قبل بضعة أعوام فقط ساعات يأس حقيق ، وخيل لها غير مرة ، أن حلم هرتسل^(١) في بعث الدولة اليهودية

(١) تيودور هرتسل الكاتب والصحن النمسي (١٨٦٠ - ١٩٠٤) ، وقد كان روح الحركة الصهيونية الحديثة ، وأعظم رعاتها ومنظميها

تزداد توطدا وتمكيناً

والآن وقد رأى العرب أن بلادهم التي استوطنوها منذ الأحقاب ، وأراضيهم ومرافقهم الحيوية ، ورتابهم الديني والاجتماعي ، كل ذلك يسير سراعا إلى التلاشي والعدم ، والدولة المنتدبة تؤازر اليهودية باستمرار على تمكين غزوها المروع ؛ وخطر الفناء القومي يلوح في ثنية المستقبل ، فهل ننجب إذا رأيناهم ينفجرون سخطا ويؤثرون السقوط في ميدان الجهاد الشريف على ذلك الاعدام البطيء النظم ؟ وهل تعجب الحكومة البريطانية إذا كانت سياستها في فلسطين قد أدت إلى مثل هذا الانفجار الخطير ، وهو الثالث من نوعه في نحو عشرة أعوام ؟

إن مؤازرة السياسة البريطانية لليهودية وتمضيدها لإنشاء الوطن القومي برجمان إلى اعتبارات واضحة معروفة ؛ فالسياسة البريطانية تعرف مدى النفوذ اليهودي في عالم المال والسياسة ، وقد حظيت بريطانيا في الحرب العظمى بمؤازرة اليهودية ، وما زالت ترى إلى الاحتفاظ بهذه المؤازرة ؛ وإنشاء الوطن القومي ضمان لاستمرار هذا التعاون بين السياسة البريطانية وبين اليهودية . بيد أن هنالك اعتبارات أخرى يلوح لنا أن السياسة البريطانية لم تقدرها حق قدرها . ذلك أن فلسطين هي قطعة من العالم العربي تحوطها الأمم العربية من كل صوب ، والأمة الفلسطينية هي عضو في جماعة الأمم الاسلامية الكبرى ؛ وانكلترا التي تسيطر على عشرات الملايين من المسلمين ، في افريقية وآسيا يجب عليها أن تحسب حسابا لعواطف المسلمين ومشاعرهم ؛ ومن المحقق أن العالم الاسلامي كله يعطف على فلسطين في محنتها وكفاحها كل العطف ، ويأخذ على السياسة البريطانية مسلكتها نحو فلسطين وأمانها المشروعة ، ومن المحقق أن إصرارها على هذا السلك سيكون له أسوأ الأثر في العالم الاسلامي ، وفي عواطف الشعوب الاسلامية نحو انكلترا

وعلى اليهودية ذاتها أن تفتن لهذا الاعتبار ؛ فالوطن القومي اليهودي يقوم في قلب العالم العربي والاسلامي ، متحديا عواطف العرب والمسلمين ، وهم من حوله كالبحر الزاخر ؛ واتعلم اليهودية أن الحوادث قلب ، وأن معايير التاريخ ليست في يدها وأن هذا

وإنشاء الوطن القومي اليهودي ، سينهار في مهده ؛ وكادت الحكومة البريطانية في سنة ١٩٣٠ بعد أن تبينت عدالة المطالب العربية فيما يتعلق بوقف الهجرة اليهودية ، ووقف بيع أراضي العرب ، وهي مطالب عزيزها تقرير اللجنة الانكليزية التي انتدبت لبحث هذه المسائل ، تنجح الى إرضاء بعض الأمانى العربية ، وصدرت في مجلس الموم البريطاني تصريحات رسمية في هذا الشأن ؛ ولكن سرعان ما تغلب نفوذ اليهودية مرة أخرى ، وسحبت الحكومة البريطانية تصريحاتها ووعودها للعرب ، بتصريحات معارضة ألقها تأييدا لوجهة النظر اليهودية وعهد بلفور

وهكذا استطاعت اليهودية أن تخرج ظافرة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كادت تزغزع ايمانها في حلها وفي مثلها ؛ وذابت جهود العرب سدى ، ولم يظفروا رغم ثوراتهم واحتجاجاتهم المتكررة بحمل السياسة البريطانية على أن تحيد ذرة عن خطتها

ثم لقيت الحركة الصهيونية ظرفا جديدا لنشاطها واضطرابها ؛ ذلك أن ألمانيا جاشت بالخصومة السامية عقب قيام النظام الهتلري ، ونظمت الحكومة الهتلرية لسحق اليهود في ألمانيا مطاردة عنيفة راثمة ، فتوجست اليهودية في أنحاء العالم شرا ، وهتفت كلها باخطار الخصومة السامية ، وألفت الصهيونية الفرسة سانحة أن تؤكد لأبناء جنسها كرة أخرى أن الوطن القومي اليهودي هو ملاذ اليهودية وعصمتها من تلك النزعات الخطرة ؛ وهكذا تدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين بمنف لم تعهده من قبل ، وزاد عدد اليهود في فلسطين بسرعة حتى أنه بلغ الضعف تقريبا في نحو ثلاثة أعوام ؛ وبيان ذلك تقول إن اليهود بلغوا حتى سنة ١٩٣٢ نحو ثلثمائة ألف من مجموع سكان فلسطين وقدره مليون . وقد بلغوا في سنة ١٩٣٦ حسب آخر إحصاء نحو خمسمائة ألف ، وبلغ السكان العرب من مسلمين ونصارى نحو سبعمائة وخمسين ألفا ؛ وقد اجتمعت مرافق فلسطين الحيوية في الأعوام الأخيرة في يد اليهودية بسرعة ، وأحرزت اليهودية بالشراء السخي معظم أراضي فلسطين الخصبة ، وساعدتها السلطة المنتدبة على تحقيق سيطرتها الاقتصادية بجميع الوسائل التشريعية والادارية ، وما زالت هذه السيطرة

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

الحصانة واليهودي الأفاق

— ١ —

ما أعرب هذا العلم علم المكروبات، وما أعجب ما كان من أمره في يوم وُلِدَ !

بدأ هذا العلم رجلٌ قماش لم يُشَفِّ ثقافة مذكرة ، ومع ذلك كان أول راءٍ رأى المكروبات ، ثم جاء كيميائي فأوجد للمكروبات مكانة ذات بال في خريطة الوجود ، وأرعب الناس منها وأرعد . ثم تلاه طبيب قرية ، فجعل من صيادة المكروب شيئاً منظماً قارب أن يكون علماً صحيحاً . وأراد فرنسي وألماني أن يتجوا بالأطفال من سم مكروب من أفتل المكروبات ، فجزرا في سبيل ذلك أعدادا لا تحصى من الخنازير النينية ومن الأرناب لو تراكت لبلنت أكواماً كالجبال . إن تاريخ سيد المكروب تاريخ ملي بالخاطرات الجميلة ، والايحاءات النادرة ؛ ولكن به كذلك كثير من الغباوات الدهشة ، والتناقضات المجنونة . ولا يختلف تاريخ علم المكروب في هذا عن تاريخ علم الحصانة immunity وهو العلم الذي لا يزال ناشئاً ، وبه تنفس لنا مناعة الانسان من المكروب ، فالذي بدأ هذا العلم ، على نحو ما ، هو رجلٌ باحث كثير الاحتياج ، قليل الاتزان ، ذو جنة تعاوده كثيراً

وكان هذا الرجل يهودياً يدعى إيلي متشينيكوف Elie Metchnikoff ، ولد في جنوب روسيا عام ١٨٤٥ ، وقبل أن يبلغ العشرين قال لنفسه : « إني ذو غيرة وذو مقدرة ، وقد جتني الطبيعة مواهب راجحة ، وأنا أطمح أن أكون بحائناً كبيراً » وذهب هذا الشاب إلى جامعة خركوف Kharkoff ، واستمار من بعض أساتذته مجهرأ ، وكانت الجماهر عندئذ نادرة ، وأخذ ينظر فيها نظرات لم تكن دائماً بينة واضحة ، ومع هذا قام على

البحر قد يطئن يوماً فينمر هذا الوطن القوي بما فيه ويصبح أترأ بمد عين

والسياسة البريطانية لا يمكن أن يفوتها مثل هذا الاعتبار الخطير الذي تنوء به الصحف البريطانية ؛ ولكن الظاهر أن عوامل أخرى تمل على السياسة البريطانية تشدها نحو بحث المسألة الفلسطينية ؛ فحن نعرف أن السياسة البريطانية قد منيت بالشل الذريع في محاولتها إحباط النزوة الإيطالية للحبشة ، وأن ظفر الاستعمار الفاشستي يثير اليوم في انكلترا مخاوف خطيرة بالنسبة لمستقبل سيادتها في شرق أفريقية ووادي النيل ، وكذلك بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية في البحر الأبيض المتوسط ؛ وتخشى انكلترا أن تساهلها نحو أماني فلسطين — وفلسطين تعتبر قاعدة حيوية في مواصلاتها الامبراطورية — قد يحمل على نوع من الضعف والتسليم ويمرض هيبتها الاستعمارية للانتفاض . وقد رأينا الندوب السامى في فلسطين برد على مطالبة العرب بوقف الهجرة الصهيونية باصدار تصريح جديد بمهاجرة أربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية ، متجاهلاً بذلك أن طغيان الهجرة من أهم أسباب الثورة القائمة . هذا إلى أن نفوذ اليهودية في انكلترا يعمل عمله ؛ وقد رأينا زعيم الصهيونية الدكتور ويزمان يسارع بالعودة من فلسطين إلى انكلترا مندبداً الثورة الفلسطينية ؛ وقد كان لسامى هذا الزعيم دائماً أثرها في موقف السياسة البريطانية نحو فلسطين ونحو رعاية الوطن القوي اليهودي

على أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحتفظ طويلاً بهذا الموقف الشاذ ؛ ففلسطين تقف اليوم موقف الحسم ، وتصير على أن تبحث مطالبها وأمانها بين الانصاف ، ومن وزائها عطف الأمم العربية والاسلامية كلها ؛ وانكلترا تقدر بلا ريب مدى هذا العطف وآثاره ؛ وبحث القضية الفلسطينية بروح الانصاف لا يمكن أن يعتبر ضمناً أو تسليماً كما يريد أن يفسره غلاة الاستعمار ؛ أما الأصرار على تمكين اليهودية من أعناق فلسطين ، ودفع الشعب الفلسطيني إلى منحدر الثلاثى والفناء ، والاكتفاء برسائل الحان التحقيق فسياسة خطيرة ؛ ولا ريب أنها تعرض مراكز انكلترا في الشرق الأدنى ، وفي العالم الاسلامى كله لأشد الأخطار